الفصل الأول

التفكيك بين أزمة التنظير وأزمة الممارسة

obeikandl.com

obeikandl.com

أيهما يسبق الآخر ويسهم فى تشكيله وتوجيهه : الفكر والتنظير، أم الواقـع والممارسة ؟

سؤال أنطولوجى مطروح منذ القدم، تعددت الإجابات الفلسفية عنه وتباينت، ما بين تقديم للواقع على الفكر وتسييد له كما فى الفلسفات المادية على اختلاف أطيافها، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وبين تنـزيه للفكرة وسمو بها إلى مراتب التقديس، وجعلها معيارا لتقييم الواقع القاصر المنقوص، ونموذجا يهتدى به عند السعى إلى تكميله وتجميله ليقترب من عالم المثل، كما هى الحال فى مجموعة الفلسفات المثالية والروحية.

بيد أن الهدف من طرح السؤال هنا مختلف كثيرا عن ذلك الهدف الذى طالما وجه مسيرة الفكر الفلسفى، فهو ليس مطروحا من أجل إرساء مبدأ فلسفى ننطلق منه نحو فهم كلى لقوانين الوجود، وعلاقة ذلك الوجود بالإنسان وتفاعله معه وإدراكه له، بل الهدف أبسط من ذلك : إنه السعى إلى فهم لحظة تاريخية راهنة توازت فيها ممارسات واسعة النطاق لعمليات إعادة الصياغة والتشكيل للأفكار والنظم التعليمية، ضمن ما يعترى كافة المناحى السياسية والاقتصادية والإعلامية من تغيـر، مـع انتشـار، واسـع النطـاق أيضـا، لأفكـار مناوئـة "للحداثـة الرأسماليـة المتوحشة"، ومتهكمة على عقلانيتها الكلية الزائفة التى تخفى وراءها كافة أشكال الاحتكار والانحياز والرغبة فى الهيمنة.

ومصدر الدهشة والدافع إلى طرح السؤال، أنه على الرغم من التناقض البّين بين الخطابين : نقصد خطاب العولمة المبشر بزوال الأيديولوجيات الكبرى، وإحلال الاستراتيجيات الصغيرة محل النظريات الشاملة، والمستغنى عن الفكر والوعى بالتقنية والأداتية.. وخطاب ما بعد الحداثة المبشر بالفوضى، المنكر للمنطق العام والعقلانية الكلية، الراصد لما بين الذوات بخطاباتها من صراع على المعرفة والقوة. نقول إنه على الرغم مما بين الخطابين من تناقض، فإنهما، فى المحصلة النهائية، يكرسان فكرة واحدة هى فكرة " التجزىء " و " التفكيك " لكافة البنى الفكرية والتنظيمية، فكيف يكون ذلك ؟

يناهض كتاب ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية أية فكرة مسبقة أو متعالية Transcendent تعطى لأصحابها مواقف هيمنة يطلون منها على من هم دونهم؛ لذلك فهم يتفقون مع التيار المناهض للنظرية، أو ما يمكن تسميته بـ " فوضوية المنهج Methodological Anarchy"، فى رفض التعامل مع الظاهرة من منظور واحد مقدس، أو من خلال قالب فكرى غير قابل للنقد.

وخطورة هذا الموقف، إذا ما أيىء فهمه أو تم استغلاله لصالح أيديولوجية معينة، أن يودى بالتنظير إجمالا، ويجعل من التربية، مثلا، ساحة للممارسة اللاعقلانية للقوة، دون أطر أو نظريات.

فهل تدخل ظاهرة تفكيك البنية، التى يعنى بها الكتاب، فى إطار هذا الموقف الرافض للتنظير والكلية، المتبنى لمنطق التجزىء ؟ أم إن هذا التفكيك صادر عن وعى أيديولوجى مناهض للأيديولوجيا، وبالتالى يتحرى تقويض البنى الأيديولوجية وتطبيقاتها فى التربية والتعليم، من أجل أن يسود منطقه الفوضوى اللاعقلانى المحقق لمصالحه بحيازة المعرفة والقوة ؟

بتعبير آخر:أيهما تأثر بالآخر وجاء متوافقا معه، ممارسات التفكيك الملتحفة

بخطاب العولمة الرأسمالى، أم فكر التفكيك كما يطرحه كتاب ما بعد الحداثة نقاد الرأسمالية ؟ أم إنه لا رابط بينهما سوى مجرد التزامن ؟

إن ما يمكن أن نسوقه من تفسير لحدوث ذلك الرواج والتزامن بين الخطابين، وما نسعى من خلال فصول الكتاب إلى تأكيده، أنهما صادران عن أزمتين متزامنتين أيضا : **الأولى**: هى أزمة التنظير التى ضاقت حلقاتها فى النصف الأخير من القرن العشرين، والتى امتدت من ميدان فلسفة العلم إلى ميدان التربية، لأسباب يعود معظمها إلى قابلية ذلك الميدان لاستضافة مثل تلك الأزمات والاستغراق فى اجترارها. أما الأزمة **الثانية**: فهى أزمة ممارسة، أو بالأحرى أزمة منافسة وأزمة تمويل فى السياق التربوى الغربى، تصاعدت أثناء فترة الحرب الباردة، ووصلت ذروتها مع نهاية الثمانينيات، ثم وجدت فى حقبة التسعينيات،بكل ما حوته من تحولات عميقة، تربة خصبة لكى يتم تصديرها إلى السياقات التربوية الأخرى، ويتم الترويج لخطابها داخلها.

ولكى نؤصل لهاتين الأزمتين، ربما كان مفيدا أن نبحث فى مسيرة التطور المعرفى والتقنى، وما رافقها من تغيرات حضارية وقيمية، عن الأسباب التى أدت إلى تأزم التنظير والممارسة مع نهاية القرن العشرين، وأن نقف على ما يبرر تلك النـزعة الشديدة إلى تفكيك كل شىء، بعد أن ظل الغرب حريصا على تشييد البنى الفكرية والتنظيمية، بل مزهوا بها طوال رحلة الصعود التى امتدت عبر النصف الثانى من الألفية الفائتة.

الملابسات المعرفية والحضارية لفكر التفكيك

لعل من أبرز ما يميز مشهد المخاض للألفية الثالثة، ذلك الزخم الحاشد من الكتابات التأريخية والاستشرافية التى رافقته، والتى تراوحت ما بين التبشير بتغيرات مفرطة فى الخيال والمبالغة، وفقا للمعدلات المتسارعة من الإنجاز العلمى

التى تحققت فى العقود القليلة الماضية، وبين المبالغة من قبل كتابات أخرى فى التنفير والوعيد من مغبة الارتداد بالحضارة الإنسانية إلى مرحلة مظلمة من اللاعقلانية، بدأت إرهاصاتها الأولى مع انفلات القوة المعرفية والتقنية من عقالها، لتدمر الحياة الإنسانية بدلا من أن تسعدها.

وما بين التبشير والتنفير، يستلزم التقييم الموضوعى لما تحقق من إنجازات معرفية وتقنية، والاستشراف الدقيق لما يمكن أن يتحقق فى المستقبل، أن تتهيأ للبشرية لحظات تأمل ومراجعة، وأن يأخذ بعض المفكرين على عاتقهم مهمة الوقوف على المنطق الحاكم لصيرورة الوجود البشرى وإنجازاته وإمكاناته، أو على نحو أكثر تواضعا، مهمة تحديد بعض معالم النموذج الأساسى للتغيرParadigm، أو "النموذج الإرشادى"، بتعبير (توماس كون).

وربما كانت حقبة الستينيات هى الأنسب لبداية تلك الوقفات التأملية، وكأنها أزمة منتصف العمر، التى تتفجر معها تساؤلات الهوية ومشاعر الاغتراب، فكانت الحركات الشبابية الرافضة والمتمردة فى أوروبا، وكانت كتابات (كون) و(توفلر)، ومن تلاهما مثل (دانيال بل) أوائل السبعينيات. بمثابة محاولات لطرح الأسئلة، أكثر منها محاولات للإجابة عنها، بدليل أنها مازالت مطروحة إلى الآن، بل تولد عنها المزيد من التساؤلات كلما اجتازت الثورة المعرفية والتقنية عتبات جديدة.

١ـ العلاقة بين التغير المعرفى /التقنى والتغير القيمي

يسود لدى مروجى خطاب العولمة تصور أحادى البعد لتلك العلاقة الجدلية بين ثورة المعرفة والتقانة، وبين الأنساق القيمية للمجتمعات التى أفرزتها؛ إذ يفترض ابتداء أن التقانة هى قاطرة التغير الاجتماعى، وبالتالى فهى التى تحدد معالم ذلك التغير والقيم الحاكمة لمسيرته، وأن على القيم أن تتغير لتلائم العالم الذى صنعته

التقانة، والذى تغيرت فيه الوسائل والوظائف، وأعيد فيه توزيع الأدوار، وطرأت عليه تغيرات عميقة فى أنماط الحاجات الإنسانية، ومعايير إشباعها (١)، أو كما يبشر (توفلر،١٩٩٠) بأن التقنية فى المستقبل سوف تسهم أكثر فى إحداث تغييرات قيمية، وسوف تعيد تقنين قيمنا ومفهوماتنا، مثل قيمة " الأمومة" المعرضة لتغييرات جوهرية بفعل تقنيات " بنوك الأمشاج"، و"الأرحام البديلة"، وقيمة "الخصوصية" المعرضة لتغييرات جوهرية بفعل تقنيات الاتصال والاستشعار.

بيد أن تصورا آخر لتلك العلاقة يطرحه علم اجتماع المعرفة، ويتبناه الكتاب، مفاده أن مفهوم " التقانة" ذاته لايخلو من بطانة سوسيولوجية جديرة بالاعتبار، وأن غفلتنا عن البعد الاجتماعى والثقافى من المفهوم هى السبب فى اقتصار تصورنا للعلاقة بين التقانة والقيم على هذا النحو الأحادى، فالزعم بأن "التقانة" هى، فقط، التطبيق العملى للاكتشافات العلمية فى مجالات الإنتاج والتحكم فى عناصر البيئة، واستحداث أنماط جديدة من ممارسة الحياة.. هذا الزعم يفرغ المفهوم من محتواه الاجتماعى، ويقطع الصلة بينه وبين نسق القيم والاعتبارات الأخلاقية التى أفرزته (٢) وهو ما يفقد التحليل عمقه.

وعلى هذا، فإن التصور الأقرب إلى الموضوعية، هو أن للقيم، بوجه عام، وظيفتين: **الأولى**: تحريكية دافعة وموجهة للسلوك والعمليات الفكرية والمعرفية، تتضمن نزوعات الأفراد والمجتمعات Dispostions نحو أنماط معينة من التفكير والتصرف، وتقودهم بالضرورة إلى التعامل مع معطيات الواقع البيئى والظرف التاريخى على نحو معين.. وهذه ببساطة هى ثقافتهم التقنية.

أما **الوظيفة الثانية للقيم**: فهى الوظيفة التفسيرية، أو التقويمية بتعبير أدق، ومن خلالها تتم مراجعة مواقف الأفراد والمجتمعات من الأفكار والتقنيات التى تمخضت عنها، والتساؤل حول مدى "جدوى" التمسك بها فى ظل "كلفة "

اعتمادها وتطبيقها، سواء أكانت هذه الجدوى، وتلك الكلفة ذوى طابع اقتصادى بحت، أم كانتا ذوى طبيعة أخلاقية، أو كانتا خليطا من هذا وذاك.

وهكذا تكون الثورات العلمية والتقنية التى تحققت فى سياق المجتمعات الغربية، إفرازات ونتائج طبيعية لتطبيق وتفعيل أنساقها القيمية، ثم تأتى ردود الفعل الاجتماعية والثقافية تجاه تلك الثورات بتعديلات وآثار متنوعة ومتفاوتة الحدة، فى شكل أنساق معدلة من القيم، بعد مواقف المراجعة وعمليات التقويم.. هكذا يستقيم السياق المنطقى للعلاقة فى نظرنا، بل يكاد تاريخ المجتمعات الغربية فى القرون الأخيرة أن يكون تمثيلا واقعيا لهذا السيناريو المتكرر:

فقد تخلص العقل الأوروبى من قيود الخرافة ليستبدل قيم " العقلانية "، و"التجريبية"، و"التسامح الفكرى"، بقيم " الأسطورة "، دينية كانت أو سياسية، و"الميتافيزيقية"، و"التعصب"، وليبدأ رحلة الصعود المعرفى والتقنى، وليتخذ من منظومته القيمية الجديدة هاديا وموجها لحركة الاكتشافات العلمية والجغرافية والسياسية، ملقيا بالجانب الأكبر من تكلفة ذلك النجاح على عاتق الشرق، أدناه وأقصاه، استهلاكا لتراثه الفكرى وثرواته المادية.

بيد أن رحلة الصعود هذه لم تكن، خاصة فى مجال المعرفة العلمية ناهيك عن المجالات السياسية، لم تكن ملساء ناعمة كنقاط الخط المستقيم، تسلم كل نقطة منها إلى التى تليها فى سلام ويسر، أو تفضى كل مرحلة إلى تاليتها بشكل تلقائى، بل كانت بمثابة فترات من التراتب والتراكم، تعتريها كل حين نقاط تحول، وأحيانا قفزات نوعية أو ثورات من التغيير الجذرى، صاحبت تفجرها أزمات منهجية وقيمية، وانتقادات عنيفة للنظريات القائمة، وبزوغ نماذج إرشادية جديدة بدلا منها، أو متنافسة معها، لا تخلو هى الأخرى من بذور الإخفاق ومواطن الضعف والطعن من بنيتها (٣).

ومع كل تحول نوعى فى مسيرة البحث العلمى، كانت التطبيقات التقنية دائما من نصيب المجتمعات التى تستحقها وتدرك أهميتها، والتى تمتلك فى منظومة قيمها المعتمدة ما يجعلها تبادر إلى الاستفادة منها، والتى، فى الوقت ذاته، تمكنها من نقدها ورصد آثارها السلبية، بل التمرد عليها إذا لزم الأمر.

وفى إطار الرصد التطورى لتلك العلاقة الجدلية، يمكن بشىء من التبسيط، أن نقترح التصور التالى، معتمدين على ما طرحه بعض المفكرين من نماذج تفسيرية أمثال (Toffler,1980)، و(Pacey,1991):

- فى القرن الخامس عشر: اخترع (جوتنبرج) المطبعة لينهى احتكار المعرفة من قبل السلطة الدينية المطلقة، ويسهم فى تقويض النظام الإقطاعى المستبد، ويتيح للعقل الأوروبى التعامل بشكل بارد مع الأفكار بعيدا عن تأثير الخطابة الانفعالية.
- وفى القرن الثامن عشر: جاءت الآلة البخارية تطبيقا تقنيا لقوانين الغازات، و من أهمها قانون (بويل) حول علاقة ضغط الغاز بحجمه، الذى كان قد وضعه فى القرن السابع عشر، ثائرا على الكيمياء القديمة وأفكار (أرسطو) حول طبيعة المادة، ثم ظهرت الآلة البخارية لتقضى على مبدأ الحيوية Vitalism وليحل مبدأ الآلية بدلا منه، وعليه قامت صناعات النسيج العملاقة فى إنجلترا وفرنسا، كما ازدهرت التجارة الأوروبية بإنشاء السكك الحديدية.. وفى مقابل تلك الثورة التقنية، تعرضت إنجلترا (مهد الفلسفة الوضعية التجريبية) لموجة مفاجئة من الفلسفة المثالية الألمانية فى أواخر القرن، نتيجة التقارب بين البلاط الملكى الإنجليزى وألمانيا، ولم تعد الوضعية التجريبية إلى عرشها إلا بكتابات (جورج مور) أواخر القرن التاسع عشر.
- وفى منتصف القرن التاسع عشر: ظهرت محطات توليد الكهرباء وشبكات

توزيعها، بوصفها تتويجا تقنيا لجهود (واطسون) وباقى علماء الكهرباء فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ولتبدأ مرحلة جديدة من الاستخدامات الصناعية للطاقة، إلى جانب ما حققته آلة الاحتراق الداخلى بعد ذلك من طفرات فى مجال المحركات.. وفى الوقت ذاته حقق (شارلز دارون) ثورة أخرى فى مجال دراسة التاريخ الطبيعى بنظريته حول " النشوء والارتقاء"، وهى النظرية التى لم تقتصر ردود الفعل تجاهها على المهتمين بالعلوم الطبيعية فقط، بل تعدتهم إلى علم الاجتماع، فظهرت أولا "الداروينية الاجتماعية"، ثم أفاد منها (إميل دوركايم) فى صياغة بنائيته الوظيفية، كما كانت لها (التطورية) آثارها على المدرسة السلوكية فى علم النفس، وفى الوقت ذاته، كانت هناك ردة فعل ثائرة على الرأسمالية الصناعية المتعاظمة فى أوروبا، تمخضت عن الفلسفة الماركسية التى لم تجد بيئة حاضنة أوروبية، فانتقلت كنموذج أو برنامج عمل للثورة على الحكم القيصرى فى روسيا.

- وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين: ظهرت فكرة "السيبرناطيقا" أو التسيير الذاتى للآلات كرد فعل لثورة الميكانيكا الكهربائية والمدرسة السلوكية فى علم النفس، مما أثار موجة من ردود الفعل المتفاوتة فى الفنون والآداب الغربية، تراوحت مابين البدايات الأولى لأدب الخيال العلمى المبشرة، وبين الموجات الرومانسية الرافضة، ومنها على سبيل المثال فيلم "العصور الحديثة" لـ (شارلى شابلن)، وكذلك كانت هناك ردود فعل أصولية (دينية وعرقية وأيديولوجية) ترفض الاندماج فى هذا التغير، وتبحث عن إجابات جاهزة لتساؤلاتها، مثلما حدث من انفصال وتعدد فى الكنائس الأوروبية والأمريكية، ونزعات عنصرية متطرفة.. وكذلك كانت هناك ردود فعل فى علم النفس على الاتجاه السلوكى تمثلت فى نظرية " الجشطالت" الرافضة لفكرة تجزئة الإنسان إلى شذرات من الاستجابات الميكانيكية.

- وفى الثلث الثانى من القرن العشرين: كانت تجارب الانشطار النووى تطبيقا تقنيا لنسبية (أينشتاين) ونظرية الكم لـ (بلانك) الثائرتيْن على تقنية (نيوتن) وقوانينه الحركية، وظهرت حلقة فينا أو "الوضعية المنطقية"، التى ضمت مجموعة من علماء الفيزياء المهتمين بفلسفة العلوم، لتخرج كافة الموضوعات غير القابلة للتحقق التجريبى من نطاق الفلسفة.. ثم كانت الحرب العالمية الثانية هى ذروة الدراما الإنسانية الحديثة، تصارعت خلالها الفلسفات المثالية بطبعاتها الحديثة المفرطة فى التطرف (النازية والفاشيستية)، مع ليبرالية أوروبا الغربية ذات المصالح الرأسمالية الاستعمارية، وبعد انتهاء الحرب، سرعان ما تحول الصراع إلى صورته الأيديولوجية بين الكتلتين الاشتراكية والرأسمالية.. وفى رد فعل عكسى، جاءت الفلسفة الوجودية بدرجاتها وألوانها المختلفة: من العبثية إلى الصوفية، وفى الاتجاه ذاته جاءت مظاهرات الطلاب فى الستينيات لتعبر عن مدى الاغتراب الذى يفترس الأجيال الجديدة، ولتتخذ الحركات الطلابية بعد ذلك أشكالا من العمل السياسى (الأحزاب الاشتراكية الأوروبية) والبيئى (جماعات حماية البيئة والسلام الأخضر).. وغيرها متنفسا لها.

- أما الثلث الأخير من هذا القرن: فقد شهد ثورتين معرفيتين تقنيتين أساسيتين، يعبر عنهما (توفلر) بمصطلح " الموجة الثالثة" هما : ثورة الاتصالات والمعلومات، التى كان لبرنامج أبحاث الفضاء الدور الأكبر فى تفجرها، مدفوعا بالمنافسة المستعرة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، والتى سرعان ما كان لها الدور الحاسم فى إنهاء الصراع لصالح الولايات المتحدة، وطرح مفاهيم جديدة على رأسها مفهوم " العولمة".. أما الثورة الثانية، فهى ثورة الهندسة الوراثية، التى جاءت مدفوعة بهواجس بيئية تتعلق بأخطار ندرة الغذاء، والتشوهات الناشئة عن الإشعاعات، والرغبة فى إطالة الحياة

الإنسانية.. وكان لبرامج أبحاث الفضاء أيضا دور مهمٌّ فى تقدمها.. وقد أثارت الثورتان عديدًا من ردات الفعل، بعضها يتعلق بحقوق الإنسان، والبعض الآخر يتعلق بالجوانب الدينية الشرعية، والثالث له دوافع ثقافية قومية، والرابع اقتصادى بحت.

٢ـ الإطار الأيديولوجى الحاكم لعلاقة الثورات العلمية بالتغيرات القيمية

من العرض السابق، يتضح أن العلاقة الجدلية بين التقدم العلمى والتقنى، وبين التغير القيمى، كانت فى كل مرة تتم فى إطار أيديولوجى خاص، والشاهد فى نظرنا أن هذا الإطار، على اختلاف ظروفه ومعطياته فى كل مرة، سيبقى شرطا موضوعيا لحدوث المراجعة، وإفراز النموذج الإرشادى الجديد:

- فقد كانت حركة الإصلاح الدينى، ثم قضية التنوير Enlightenment إطارا أيديولوجيًّا لظرف التحول المعرفى والتقنى فى أوروبا المسيحية من الظلامية إلى النهضة، ممهدا لإحلال قيم " العلمانية"، و"العقلانية"، و"الديمقراطية" محل "التفويض الإلهى"، و"الأسطورية"، و"الاستبداد الدينى والطبقى"، ومحررا العقل الأوروبى من قيوده، ليجرب ويستنبط، ويطبق نظرياته، ثم ينقدها ويثور عليها من جديد، ولكن كان التناقض الأيديولوجى سافرا بين هذه الأفكار التنويرية، وبين الممارسات الاستعمارية فى الشرق الآسيوى والأفريقى.
- وكانت فكرة الحداثةModernism إطارا أيديولوجيا للثورات الأوروبية فى القرن الثامن عشر، ثم لتبلور دولها القومية فى القرن التاسع عشر، وكانت أيضا إطارا موجها لثورة التصنيع والتوسع فى تطبيق الأفكار العلمية لزيادة الإنتاج وزيادة رأس المال وفائض القيمة، تماما كما كانت إطارا للوعى التاريخى بتلك الرأسمالية وحركة المجتمعات وأهمية دراستها ماركسيا وبنيويا، بل بيولوجيًّا وسيكولوجيًّا أيضًا.. ناهيك عن تجلياتها الأدبية والفنية والنقدية.

- ثم كان الصراع "الشمولى/ الليبرالى" إطارا لحربين عالميتين أعادتا صياغة الخريطة السياسية للعالم، تم توظيف العلم والتقانة خلالهما على نطاق واسع، فى مجالات صناعة السلاح واستقطاب الكفاءات العلمية، وكان مشهد الذروة هو إلقاء القنبلتين الذريتين على اليابان، ثم سرعان ما أصبح هذا الإطار الأيديولوجى حاكما للحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكى والرأسمالى، وظفت خلالها التقانة لتحقيق "الردع النووى"، و"حرب النجوم" بأوسع نطاق.

- فى ردة فعل عارمة، كانت الدعوة إلى ما بعد الحداثة Postmodernism رفضا للأيديولوجيات المادية المهدرة لقيمة الإنسان لصالح الاقتصاد والهيمنة الإمبريالية، وكانت إطارا أيديولوجيا، بشكل أو بآخر، لتشكيل ثقافة مضادة Counter culture وظفت البحث العلمى وتقنياته لصالح قضية البيئة وتحسين نوعية الحياة، والتنمية الشاملة والمستدامة.(٤).

- وأخيرا كانت فكرة "نهاية الأيديولوجيا"، أو "نهاية التاريخ"، إطارا أيديولوجيا لترويج أفكار مثل: "النظام العالمى الجديد"، " العولمة"، و" القرية الكونية"، و"تدويل الاقتصاد والتجارة"، والشركات عابرة القوميات، وتوظيف ثورة الاتصالات والمعلومات لتكريس تلك المفاهيم ووضعها موضع التنفيذ الفعلى (٥).

وبغض النظر عن الأهداف "الأيديولوجية" من وراء دعاوى نهاية الأيديولوجيات الرائجة الآن، فإن الواقع الراهن يعانى من أزمة حقيقية، أو ربما "خواء أيديولوجى" إن صح التعبير، نتيجة إخفاق تيار ما بعد الحداثة فى إيجاد البدائل المناسبة للأيديولوجيات الشاملة، التى سبق وأن تمرد عليها، أو الخروج من النطاق الضيق لفكرة "اليمين / اليسار" التى أفرزتها حداثة القرن الثامن عشر،

وظلت ناجحة على مدى قرنين، ثم ما لبثت أن أصبحت غير معبرة عن الواقع الراهن أو مرتبطة به، سواء على مستوى نقد هذا الواقع، أو مستوى طرح التصورات المثالية البديلة له، أو على مستوى إيجاد المشروع التنفيذى لهذه التصـورات (٦).

وعلى ذلك فقد وجد منظرو ما بعد الحداثة أنفسهم أمام تحد خطير للثنائية التقليدية (يمين/ يسار)، التى طرحتها أيديولوجيات الحداثة، ولكنهم لم يستطيعوا بعد أن يتجاوزوا إلى ما هو أبعد من مجرد التمرد عليها (٧)، واقتصرت مواجهاتهم لها على البدائل المتذررة والمتعددة، أو ما يعرف بالتفكيكية Fragmentalism، مما أفضى فى النهاية إلى ازدواجية واضحة فى الفكر والخطاب الغربى المعاصر، بين مثالية ورومانسية التبشير بالعولمة والكوكبية، بإنجازاتها التقنية والليبرالية، وبين فجاجة تكريس المفهوم لصالح الغرب دون بقية العالم.

٣ـالازدواجية فى قيم الثقافة الغربية المصاحبة لثورة العلم والتقانة

من أهداف علم اجتماع المعرفة الكشف عن علاقة الأفكار بالبنى المجتمعية التى تفرزها وتعتمدها، ومحاولة تأويل الظواهر المعرفية فى ضوء خصائص الواقع وعلاقاته وملابساته، وفى هذا الإطار لايمكن التعامل مع قضية " القيم فى علاقتها بالتقانة"، بمعزل عن السياق الاجتماعى الغربى، وما يتضمنه من قوى وتنويعات أيديولوجية وسياسية، وما يربطه ببقية المجتمعات من علاقات ومصالح اقتصادية/ سياسية بالأساس.

فالملاحظ على الخطاب الذى يروجه الغـرب للتبشـير بمنظومـة قيميـة عالميـة جديدة تفرضها ثورة المعلومات والاتصالات، أنه خطاب مزدوج المعايير، يعكس ما تعانيه الأنساق القيمية التى تحكمه من تناقض؛ إذ لا تستقيم تلك الأنساق ذات النـزوع النفعى الرأسمالى، مع منطق التغير الاجتماعى لمرحلة ما بعد الحداثة،

بمضامينه الإنسانية الشفافة، كما طرحتها حركات الستينيات، ثم جماعات حماية البيئة وحقوق الإنسان فى الثمانينيات والتسعينيات.

ومن مظاهر هذا الازدواج، أن التشكيلة الراهنة للأحزاب السياسية الحاكمة فى أوروبا هى من الأحزاب الاشتراكية والعمالية الوثيقة الصلة بخطاب ما بعد الحداثة وما بعد التصنيع، بل ينتمى قادتها بشكل مباشر إلى التيارات اليسارية الراديكالية النشطة فى الستينيات (٨)، هذه التشكيلة ذاتها هى التى تمارس، الآن، سياسات إقليمية ودولية تتسم بالهيمنة الرأسمالية، ربما تكون متورطة فى ذلك من خلال تحالفها الاستراتيجى مع الولايات المتحدة، ولكنها غير معفاة من المسؤولية عنها.

وفى الجانب الآخر من صورة الحياة السياسية للمجتمعات الأوروبية، لم يجد بقية نشطاء اليسار الأوروبى من جيل الستينيات مكانا فى المقدمة، فتحولوا إلى منظمات المجتمع المدنى الطوعية المناوِئة للممارسات الحكومية فى مجالات البيئة وحقوق الإنسان، واتجه بعضهم إلى برامج الأمم المتحدة والمنظمات العاملة تحت مظلتها، الأمر الذى يتجلى بوضوح فى اللغة التى يستعملها الخطاب الصادر عنها، وفى المفاهيم والقيم التى يسعى إلى تأكيدها.

وهكذا أصبحت قيم الخطاب الغربى قيما كونية Global بفعل تقنيات الاتصال من ناحية، وبفعل مصداقية المنظمات الدولية التى تدعم ذلك الخطاب وتؤازره من ناحية أخرى؛ أى إنها تجاوزت مجتمعاتها لتفرض نفسها على المجتمع العالمى كله، بعد أن خلت الساحة من الطرف الثانى من المعادلة الأيديولوجية، ولكن هذه النزعة الكونية لم تسلم من ازدواج وتناقض:

- فقد صيغت اتفاقيات تحرير التجارة العالمية التى تمخضت عنها الجولات المتعددة لمفاوضات أورجواى، والتى تتعدى الأربعين اتفاقية، صيغت صياغة قانونية تفرض كل القيود على الدول الصغيرة، وتمنح كافة الامتيازات للدول

الغربية والصناعية الكبرى، بينما يزعم الخطاب المروج لها تحت شعار "تدويل الاقتصاد"، أنها ضرورية لضمان الوقاية ضد سياسات الإغراق والاحتكار، وأنها تفتح باب المنافسة أمام الدول الصغرى فى مجالات تميزها، وأنها بشروط الجودة التى تفرضها على السلع والخدمات، بل والأفكار أيضا، تضمن حماية عناصر البيئة ومواردها من التلوث أو الهدر.

- ويلتحف الخطاب المروج للمعلوماتية بقيم ديمقراطية وحقوقية غاية فى النبل، عملت المظلة القانونية التى أقرتها اتفاقيات حماية حقوق الملكية الفكرية على تكريسها، مثل قيمة "حرمة البيانات الشخصية"، و" الأمانة فى التوثيق"، و"الشفافية".. إلخ، بينما تعمل الممارسات على تكريس مجموعة أخرى من القيم على النقيض، لعل من أبرزها قيم "الفردية"، و"الانعزالية"، و"اللاخصوصية"، و"اللاجتماعية"، بل الإجرامية المنظمة أيضا (٩).

- وينطلق الخطاب المروج للهندسة الحيوية وتقنيات البيولوجيا فى مجالات الهندسة الوراثية وزراعة الأنسجة والأعضاء، ينطلق هذا الخطاب من قيم إنسانية غاية فى السمو مثل: "إطالة العمر Aging "، و"تحسين الخصائص"، و"سد فجوة الغذاء العالمية"، بينما تثير تطبيقاتها جدلا محتدما حول أخلاقيات "الاستنساخ"، و"الموت الإكلينكى"، و"القتل الرحيم"، وحول شرعيتها الدينية، كما يحتدم الجدل حول طبيعة العلاقات الإنسانية المترتبة عليها كالأبوة، والأمومة، والأخوة، وحول طبيعة "السعادة" الإنسانية فى المستقبل، وطبيعة الاستمتاع بالحياة (١٠)

- ويبشر الخطاب المروج للإنتاج كثيف المعرفة High Intensive Knowledge Prod.، وعلى رأسه صناعة البرمجيات Software، يبشر بقيم تقدمية طموحة من خلال تطبيقات الذكاء الاصطناعى، وهندسة المعرفة، ولكنه فى الوقت ذاته

يؤكد قيما احتكارية تفرضها المنافسة الشديدة بين الشركات الكبرى عابرة القوميات، والتى تحول الناس، بل الحكومات، بفعلها إلى مجرد مستخدمين للبرامج لايستطيعون فك رموزها أو تعديلها، مما يقتل الروح الإبداعية لدى الغالبية منهم.

- ويبشر خطاب الأتمتة Automation بإنتاج غزير.Mass Prod، عالى الجودة من خلال ضوابط ومعايير التحكم والمراقبة وإدارة الجودة الشاملة .T.Q.M، ويمتاز أيضا بانخفاض سعره ليناسب كافة الدخول، الأمر الذى يكرس قيم "الإتقان" و"المساواة"، بينما تكرس آثاره الاقتصادية، كانخفاض حجم قوة العمل وازدياد البطالة، وآثاره النفسية كالإحباط والاغتراب، تكرس قيما أخرى سالبة، غالبا ما تستثمرها النـزعات الأصولية والعرقية فى أوروبا والغرب عموما أسوأ استثمار.

- وأخيرا يبشر خطاب العولمة بمجتمع عالمى للمعلومات، تذوب فيه الحدود السياسية، وتسقط الحواجز الثقافية، ويتآخى فيه البشر معرفيا، ولكن أصوات ما بعد الحداثة فى الثقافة الغربية تنادى بألا يغفلها هذا الخطاب عن حقيقة أن المعرفة بوصفها سلعة لا يمكن الاستغناء عنها من أجل إحراز القوة، تحتل موقعا مهمًّـا فى المشهد الراهن، تقوم من خلاله بتوجيه الصراع بين القوى الكبرى، وتؤهل لإضرام الحروب واشتعالها، وليس إحلال اليوتوبيا المعلوماتية (١١)، وهذا ما يجعل أصواتا أخرى تنبه إلى ضرورة أن تتعدد الهويات ولا تذوب، وألا يندفع العالم وراء فكـرة المجتمـع المعلوماتـى الموحـد؛ إذ إن كفاءة المجتمع، أى مجتمع، وقدرته على التحول إلى مجتمع معلوماتى، مرهونة، ليس فقط بقدرته على معالجة المعلومات وتجسيد الاستفادة منها بصورة مادية، ولكن بقدرته أيضا على توليد شرعيته المعلوماتية المستمدة من هويته (١٢).

٤ـ ما بعد الحداثة والعجز عن طرح رؤى بديلة

يمكن من التحليل السابق أن نرى بوضوح، كيف تعثرت رحلة الصعود فى الفكر والممارسة الغربية، عندما تصادمت ثورة العلم والتقانة مع عمليات التغير القيمى وتناقضت معها، وكيف واجه الغرب لحظة زهوه بإنجازاته العلمية والتقنية مستندا إلى منظومة قيمية يشوبها الفصام والازدواجية، الأمر الذى أزعج كتاب ما بعد الحداثة، وأثار لديهم ردود أفعال متباينة، بل ضاعف من أزمتهم، خاصة وقد بدا أنهم يكرسون، بعجزهم عن الإتيان بتصورات نظرية بديلة، ذلك الذى جاهدوا من أجل نقده وتقويضه !!

ولتيار ما بعد الحداثة جذور أعمق من مجرد التمرد على أوضاع حقبة الستينيات، تعود إلى كتابات الفيلسوف الألمانى (نيتشه) فى أواخر القرن التاسع عشر، التى دارت حول موضوعات " العدمية" و"الفوضوية" و"الوجودية"، وحول علاقة المعرفة بالقوة، وهى ذات الأفكار التى يتناولها كتاب ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، ومن أبرزهم (فوكو) كما فى مؤلفه "تاريخ الحياة الجنسية ٧٩-١٩٨٦"، حيث زاوج ما بين صراع الأدوار الجنسية، وبين صراع القوى والثقافات من أجل الهيمنة المعرفية، وربط ما بين الخطاب Discourse المعرفى وبين البنية الثقافية التى يصدر عنها، مؤكدا على كون المعرفة ليست فقط مصدرا من مصادر القوة، بل على أنها هى ذاتها القوة لمن يمتلكها.

وتتراوح معالجات أصحاب اجتماع ما بعد الحداثة لقضية المعرفة والتقانة فى علاقتهما بالقيم، تتراوح ما بين التباكى على تدنى قيمة "المعرفة"، من كونها قيمة إنسانية عليا، إلى اعتبارها مجرد "سلعة"، يتم تعبئتها فى رزم جاهزة لمن يدفع ثمنها، كما فى كتاب (ليوتارLyotard) "حالة ما بعد الحداثة ١٩٨٤"، والمبالغة فى التشاؤم بشأن مصير البشرية المغرقة فى عمليات المحاكاة للواقع الافتراضى (غير الحقيقى)، التى تفرضها تقنيات المعلومات، والذى يفضى غالبا إلى الهلاك Fatal Theory كما يذهب (بودرييار Baudrillard).

ولكن ذلك لا ينفى وجود بعض الرؤى التنظيرية الرصينة المفسرة للظاهرة، مثل رؤية (لاش Lash) فى كتابه "علم اجتماع ما بعد الحداثة ١٩٩٠"، باعتبار أن علاقة المعرفة والتقانة بالقيم محصلة لتفاعل تقنيات الحداثة مع التركيبة الطبقية للمجتمع الأوروبى، والتى تضخمت معها البرجوازية بشكل كبير بفعل امتلاكها للثروة والقوة المعرفية معا، وباعتبارها، أى ما بعد الحداثة، محصلة لتنامى النـزعات التراثية Orthodoxy فى الثقافة الغربية، وأيضا رؤية (هارفى Harvey) فى كتابه "حال ما بعد الحداثة ١٩٨٩"، التى ترد الظاهرة إلى حدوث أزمة قيمية مستحكمة نتيجة التكديس المفرط للإنتاج، وتغير نمط التمويل الرأسمالى، من الاهتمام بـ"أتمتة الإنتاج الصناعى"، إلى الاهتمام بتمويل مشروعات إنتاج السلع والخدمات الاستهلاكية سريعة العائد، ونتيجة تزايد إقبال الدولة على سياسات "الخصخصة"، و"إزالة الحواجز الجمركية"، و"تشجيع الاستثمارات الأجنبية"، مما أدى فى النهاية إلى تنامى "التفتيتية" و"التغير القلق"، وليس "الاندماج" الذى يروج له خطاب العولمة (١٣).

وبشكل عام، فإن المتأمل لمنهجية تعاطى كتاب اجتماع ما بعد الحداثة مع القضية، يلمح تأثيرا واضحا لمنطلقات التحليل الماركسى، المختلطة بالروح التشاؤمية الوجودية، بل يلمح أيضا آثارا واضحة لمقولات التحليل النفسى، كما نراها عند (جيمسون) عندما يصف مجتمع ما بعد الحداثة بأنه مجتمع فصامى Schizophrenic، انهارت فيه المعانى نتيجة الإفراط فى النسخ Copyation والمحاكاة، مما أفقده الصلة بالواقع الأصلى، وعندما يصف قيم هذا المجتمع كـ"السمو" مثلا، أو "الجمال" بأنها مغشوشة وكاذبة Meretricious and Pseudo aesthetic، من أجل أن تكون صالحة للتداول بوصفها سلعا (١٤).

بيد أن محصلة هذه الكتابات، خاصة المفرطة منها فى التهكم والتشاؤم وجلد الذات، ما زالت فى نظر بعض النقاد لا تمثل بديلا متكاملا، وإنما تزيد من حيرة

وارتباك قرائها والمتلقين لها، وتسهم فى تثبيط هممهم، وتلك هى الأزمة الحقيقية التى يواجهها تيار ما بعد الحداثة (١٥).

ويكفى للتمثيل على ذلك أن نشير هنا إلى مقال مهم كتبه (ريتشارد بروزيو Brosio) بعنوان " النظام الرأسمالى العالمى البازغ: استمرار الحاجة إلى التنظير والفعل الشجاع "، حلل فيه بعض الكتابات التى تناولت أزمة كتاب ما بعد الحداثة، وكيف أنها ساهمت فى تكريس أفكار اليمين الجديد فى إنجلترا والولايات المتحدة، خاصة فى فترة حكم (رونالد ريجان) للولايات المتحدة، ورئاسة (مارجريت تاتشر) للحكومة البريطانية .

فيرى فى كتابات (كارنوى carnoy)، مثلا، حول أزمة التمدرس فى المجتمع الأنجلوساكسونى، وحول الوظيفة المزدوجة للمدرسة فى إعداد الأفراد للالتحاق بسوق العمل الرأسمالية، وإعدادهم فى الوقت ذاته للمواطنة الديمقراطية، وحول دورها فى إعادة إنتاج التفاوتات الاجتماعية.. يرى أن تلك الكتابات لم تتجاوز مرحلة إظهار التناقضات بين الرأسمالية والديمقراطية فى التعليم، بينما لم تقدم تصورات بديلة يكون من شأنها توسيع قاعدة المشاركة الديمقراطية، أو التقليل من تأثير العوامل غير الموضوعية كالطبقة والعرق والنوع على التعليم (١٦).

ويدعم (بروزيو) رأيه بأن لأزمة ما بعد الحداثة دورا فى تكريس ما سعت أصلا إلى تقويضه ببعض الكتابات الهامة مثل كتاب (كاى Harvey J. Kaye) "قوى الماضى ١٩٩١"، الذى تناول محاولات منظرى اليمين الجديد أمثال (فوكوياما) لتفريغ مناهج التاريخ بالمدارس من المضامين الديمقراطية، بطرحه لفكرة " نهاية التاريخ "، والذى أوضح أن تمرير كتاب ما بعد الحداثة للفكرة، وترويجهم لخطاب الفوضى والتفكيك قد ساهم بصورة غير مباشرة فى ذيوعها (١٧).

ويدعم (بروزيو) رأيه أيضا بكتاب (ماكجوان .McGowan J) " ما بعد الحداثة

وأزمتها ١٩٩١"، الذى اتهم رومانسية ما بعد الحداثة، وتباكيها على فقدان العالم لترابطه من جراء عقلانية الحداثة الصناعية المزعومة.. بأنها كانت وراء نجاح الرأسمالية فى تجديد نفسها، وفى تقديم صيغة متماسكة جديدة، احتل منطق الربح فيها مكانة مهيمنة على كل شىء حتى التعليم (١٨) .

وإذا كانت تلك هى ملامح الأزمة وجذورها فى السياق الغربى، فإن أصداءها فى مجال الممارسة والتنظير التربوى كانت أقوى وأعنف، مما جعل من التربية ساحة ممهدة لممارسة التفكيك على نطاق واسع، خاصة وهى لا تملك من أسلحة التنظير الخاصة بها الكثير، وتقف من المجالات المعرفية الأخرى موقفا يمكن وصفه بـ"الاعتمادية المنهجية "

التفكيك وأزمة التنظير فى التربية

هل يعد التفكيك مقابلا موضوعيا للتنظير ؟ وهل يعد النزوع إلى تفكيك البنى النظرية الكبيرة كالأيديولوجيات الشاملة والنظريات العامة، وتفكيك البنى المادية كالنظم الإدارية والإنتاجية والتعليمية وغيرها، لونا من ألوان مناهضة التنظيرAnti-Theory strand ؟

إن أخطر ما يمكن أن تواجهه البنى التربوية من تفكيك، ذلك الذى يطول ظهيرها الفلسفى / الاجتماعى؛ لأنه يفرغها من مضمونها، ويحولها إلى ممارسات تقنية لا رابط بينها. الأمر الذى يلقى بظلال من الشك حول قدرة النظرية (الاجتماعية خصوصا) على مؤازرة الممارسة التربوية، وعلى فهم الظاهرة التربوية ووضعها ضمن تصورها العام لبنية المجتمع وعلاقاته.

وبوجه عام، يمكن تمييز اهتمامين رئيسين للعلم الاجتماعى هما: التساؤل حول طبيعة الوجود الاجتماعى، بما يتضمنه من نوعين من الموجودات؛ هما الأفراد والمجتمعات، وهو اهتمام ذو طابع أنطولوجى، والآخر هو التساؤل حول الأسباب

التى تقف وراء الظواهر الاجتماعية وتحركها، وهو اهتمام ذو طابع إبستمولوجى فى الأساس. وفى سعى العلم الاجتماعى لتحقيق هذين النوعين من الاهتمامات تبرز الحاجة إلى النظرية لكى تقدم صورة مكتملة، أو تكاد، لطبيعة الوجود الاجتماعى، وكيفية حركته وتطوره؛ أى القيام بوظيفتى: الوصف، والتفسير.

ولكى تقوم النظرية بوظيفتيها، لابد من اكتمال أبعاد أربعة أساسية وإن كانت منفصلة ومتباينة أحيانا، كما يطرحها (كريب Craib 1992) وهى (١٩) .

- تأمل الواقع الاجتماعى ورصد ما يعتريه من حركة وتحول، على كافة الأصعدة، وفى مختلف المجالات، ومحاولة الربط بين الظواهر والأعراض التى تزدحم بها المشاهد الاجتماعية.
- إقامة معرفة متماسكة ومتجانسة، إلى أبعد حد ممكن، حول علاقة كلا المكونين للوجود الاجتماعى، ونعنى بهما الأفراد الفاعلين، والبنى المجتمعية، بما يطرأ عليهما من تغير فى المستويات المختلفة من الفعل الاجتماعى، والبناء الاجتماعى.
- طرح الرؤية الخاصة بالنظرية، والتى تنتظم فى نسيجها كافة المشاهدات، والاستخلاصات، والتفسيرات المستمدة من الواقع، والممزوجة بذاتية المُنَظِّر وخلفياته وخبراته.
- إقامة نظام معيارى لما ينبغى أن يكون عليه الوجود الاجتماعى، وما يجب أن يؤول إليه التغير الذى يعتريه.

بيد أن النظرية فى سعيها لاستكمال تلك الأبعاد وتحقيقها، يمكن أن تنـزلق فى مزالق خطيرة لعل أهمها(٢٠).

- محاولة تطويع الواقع الاجتماعى لكى يتطابق والتصور النظرى المطروح من قبل النظرية، وقد يفضى ذلك إلى كثير من مظاهر افتقاد النـزاهة والموضوعية،

وَلىّ الوقائع الأمبيريقية لكى تنسجم مع التصور النظرى، وتسد ما به من فجوات، وهو ما يسميه (كريب) شرك الأحجية Crossword puzzle trap، فكما أن الأحجية تعطينا إطارا ومجموعة من المفاتيح لحل اللغز، فإن النموذج النظرى المطروح يعطينا إطارا عاما ومؤشرات تدل على ما يجب أن يكون عليه شكل ذلك الواقع، فيقوم العالم بملء تلك المربعات بالتفاصيل، وهى طريقة فعالة لاستخدام النظرية فى العلوم الطبيعية، ولكنها محفوفة بالخطر فى العلوم الاجتماعية، حيث يستحيل عزل جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية لاختبارها، ولكون النشاط الإنسانى عملية تستند إلى الوعى الذاتى والتأمل.

- التوهم بممارسة التفسير، بينما لا يتعدى الأمر مجرد الوصف والتحليل، فلا يتحقق البعد الإبستمولوجى للنظرية، ولا تحقق إضافة جديدة إلى معرفتنا حول الواقع الاجتماعى. وهو ما يسميه (كريب) شرك الوصف Description trap.
- الوقوع فى شرك التعقيد، وإرضاء الزهو العقلى بافتعال أهمية بالغة لقضايا ثانوية، أو ما يسمى شرك الألغاز الصعبة Brain-teaser trap، حيث تحتل مشكلات الرتبة الثانية مكانة أكبر مما تستحق، بالرغم من عدم ارتباطها مباشرة بتفسير شىء ما.
- شرك الترابط المنطقى، وقد يبدو هذا غريبا، حيث إن المظهر الرئيسى للتفكير النظرى هو محاولته تحقيق ترابط منطقى بين مختلف أجزاء النظرية، والمقصود هنا أن هذا السعى قد يأخذ شكلا مبالغا فيه، بحيث يؤدى أحيانا إلى تقويض النظرية ذاتها، فالعالم ذاته ملئ بما هو غير منطقى، أو بما هو منطقى ولكن بصورة مختلفة عما تطرحه النظرية.

والسؤال المطروح هنا : إلى أى مدى تؤثر تلك المزالق والشراك على معالجة

التربويين لظواهرهم، وعلى نجاحهم فى فهمها وتفسيرها ؟ وإلى أى مدى يدركون تلك المخاطر المحفوف بها اعتمادهم على النظرية فى تطوير مجالهم المعرفى ؟

١ـ وقوع التربويين فى أسر النظرية

لاشك أن للنظرية جاذبية خاصة لدى التربويين، سواء على مستوى الباحثين الأكاديميين منهم، أو واضعى السياسات ومصممى المناهج، أو حتى على مستوى المربين فى الميدان، وبالرغم من تنامى الاتجاهات المناهضة للنظرية Anti-Theoretical strands فى إطار ما بعد الحداثة، فقد ظلت سمعة النظرية لدى التربويين فوق مستوى النقد أو التشكيك.

ومكمن الخطورة فى انسياق التربويين دون وعى وراء النظرية، هو ذلك الإسراف فى نعت الكثير من الأفكار والتصورات بـ" النظريات "، لمجرد أنها حققت نجاحات فى مجالات معرفية أخرى، ولكونها استمدت مشروعيتها المعرفية Epistemological legitimacy من تلك النجاحات، وهو سبب غير كاف، من وجهة نظر النقاد، لتبرير ذلك القدر من الرومانسية الذى يتسم به تعامل التربويين معها، خاصة وهى فى أغلب الأحيان مستعارة من حقول معرفية أخرى أكثر انضباطا، وليست نابتة من تربة الحقل التربوى وما يحفل به من اضطرابات منهجية (٢١).

يضاف إلى ذلك، أن ثمة معانى واستعمالات متعددة لمفهوم النظرية تتزاحم وتسبب الارتباك وسوء الفهم لدى من يتداولونه من التربويين، الأمر الذى يجعل حدود استعماله مطاطة إلى حد بعيد، ويفضى فى النهاية إلى تفريغه من مضمونه ومحتواه :

ويرصد (شامبرز Chambers 1992) معانى تسعة على الأقل لما يحفل به ميدان التربية من استعمالات لمصطلح النظرية هى (٢٢):

أولا: استعمال المفهوم للتعبير عن الشك Hunch وعدم اليقين أو فقدان المبررات، أو مجافاة التصور العقلى لما تنبئ به الوقائع المؤكدة.

وثانيا: استعماله للإشارة إلى كل ما هو مضاد لمعانى الممارسة والتطبيق الميدانى. ثم استعماله.

ثالثا: للإشارة إلى تلك البنى المعرفية التى تتراكم عبر الزمن ومن خلال الممارسات Accumulating bodies of knowledge، والتى تستمد مشروعيتها من استقرارها الإحصائى، وتغطيتها لمزيد من الحالات، أو التى يمكن تشبيهها بالرواسب الكلسية Stalactites.

ورابعا : للإشارة إلى ما نخلص إليه من تعميمات وقواعد يمكن اتباعها من خلال تأمل الممارسات المهنية، أو ما يمكن تسميته بنظريات الممارسة Practical theories.

وخامسا : استعماله للإشارة إلى تلك التوليفات من الأفكار المجردة أمثال الفروض Hypothesis، والنماذج Models وغيرهما.

وسادسا: يستعمل لفظ النظرية للإشارة إلى الافتراضات المسبقة Presuppositions، أو المبادئ الموجهة التى تحكم تفكيرنا عندما تعالج قضية معينة.

وسابعا : للإشارة إلى المعنى المعيارى الذى تقاس عليه الآراء والمواقف بشأن موضوع معين Normative theory.

وثامنا : للإشارة إلى تلك المعارف التقنية المستمدة من نجاح التطبيقاتTechnical theory.

وتاسعا وأخيرا : للإشارة إلى المعنى المألوف للنظرية العلمية Scientific theory ذات المستوى العالى من التعقيد والتماسك الداخلى.

ومع ما يمكن إدخاله من تعديلات على ذلك التصنيف، بضم بعض فئات الاستعمال، أو إفراد البعض الآخر، أو بإضافة فئات جديدة إليه فإنه يمكن، وفقا

لرأى (جارى توماس Thomas 1997) تصور كل هذه المعانى والاستعمالات وقد انتظمت كنقاط متعاقبة على متصلين: (٢٣).

الأول: يمثل النقيضين: الممارسة/ التنظيرPractice versus theory continuum، حيث تتدرج الاستعمالات بداية من أكثرها التصاقا بالممارسة وتعميم التطبيقات الناجحة، وصولا إلى أكثر المعانى صرامة واستغراقا فى التنظير.

والثانى: يمثل النقيضين: الصيغة المفردة أو البسيطة للنظرية / الصيغة المركبةTheory as singular versus theory as plural continuum، حيث تحتل النظريات ذات الفروض البسيطة، والمتغيرات والعلاقات المحدودة أحد طرفى المتصل، وتتدرج فى تعقيدها حتى تصل إلى تلك النوعية من النظريات المركبة ذات البنى المعرفية المتشعبة، والتى تمثل غالبية النظريات التربوية المعروفة.

وواضح أن الاتجاه السائد حاليا يميل إلى فئة النظريات الفردية (البسيطة) المستقاة من الممارسة، على حساب فئة النظريات المركبة ذات الطابع التنظيرى الخالص، وهو ما ينسجم مع المزاج العام للعقل التربوى ذى الطابع الأداتى التجزيئىFragmental, Instrumental Reason، علاوة على طبيعة التربية ذاتها بوصفها مجالا معرفيا معالا من قبل المعارف والعلوم الأخرى، ومعتمدا على ما تفرزه من نظريات.

وعلى عكس ما يحدث فى العلوم الطبيعية، فإن النظرية فى النظم المعرفية الحديثة، نسبيا بالمقارنة مع النظم الأمهات كالفلسفة والرياضيات والمنطق والطبيعة..إلخ، مثل التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع، تعانى من عقدة نقص Inferiority complex تتعلق بموقعها من شجرة النسب المعرفية، كما تعانى من حساسية مفرطة تجاه ما يوجه إليها من انتقادات، الأمر الذى يفسر الإعجاب الشديد بفكرة النظرية من جانب الأكاديميين التربويين، والرغبة فى التشبه والالتصاق Contiguity

بنظريات العلوم الطبيعية، بل التعامى عن الاتجاهات الناقدة للمفهوم بشدة فى فكر ما بعد الحداثة المنتشر الآن.

إن أحد أهم الانتقادات الموجهة إلى النظرية الآن، أنها مدمرة لمسيرة تقدم الفكر، وأنها تقولبه فى مسارات محددة سلفا، لكون الكثير من النظريات هو فى الحقيقة من نتاج المصادفة، أو التجاور العشوائى للأحداث، بل من نتاج غرابة الأطوار أحيانا!! إلى الحد الذى دفع بـ (فيرابند Feyerabend 1993) أحد أهم فلاسفة العلم فى القرن العشرين، وأكثر النقاد ضراوة فى مهاجمة التنظير بمعناه اللاتاريخى العقيم، إلى استعارة كلمات (إينشتاين Einstein) فى وصفه للعلماء المبدعين بأنهم كثيرا ما يكونوا انتهازيين وفاقدين للنـزاهة Unscrupulous opportunists، خاصة وهم ينتقون بصورة متعمدة تلك الصياغات النظرية التى تحظى بقبول الناس، والتى تتسم بالجاذبية والإبهار، ويتجنبون عمدا تلك النقاط الغامضة أو التى تستعصى على الفهم عندما يصوغون نظرياتهم، فتبدوا مكتملة ومتجانسة (٢٤).

ولنتوقف عند هذا النقد الخطير، لنطرح مزيدا من التساؤلات حول :

- مدى ملاءمة ما توظفه التربية من نظريات لطبيعة الظواهر التى تتصدى لدراستها ؟
- وحول إمكانية أن يواصل الفكر التربوى تطوره فى ظل ما تعانيه نظرياته من قصور، وما تسببه من إعاقة أو " قولبة " بتعبير (جارى توماس) ؟
- وحول مدى صلاحية الرؤى البديلة عن النظرية، والداعية إلى التحرر المنهجى واللاتنظير Methodological anarchy لدفع هذا الفكر إلى الأمام ؟
- بل نتساءل كذلك عن أثر مثل هذه الرؤى البديلة على الظاهرة التى نحن بصدد دراستها فى هذا الكتاب، ونعنى بها ظاهرة تفكيك البنى التربوية ؟

٢ـ تجزؤ النظرية الاجتماعية وانعكاساته على التنظير التربوى

كما سبق، تسعى النظريات الاجتماعية إلى تغطية أكبر مساحة ممكنة من الظاهرة، وتحرص على ذلك كل الحرص، فتكون النتيجة هى الإخفاق فى تحقيق ذلك الهدف، وتحول النظرية إلى أجزاء غير مترابطة.

فالنظرية الاجتماعية فى سعيها إلى تفسير الظواهر تلجأ إلى الاستعارة Metaphor وتشبيه بنية العلاقات بأشياء ملموسة : فالماركسية تشبهها بالبناء، والتفاعلية الرمزية تشبهها بالمحادثة، والبنائية الوظيفية تشبهها بالنظام الطبيعى، وهكذا، الأمر الذى يجعل من المثال عامل قسر وإجبار للوقائع بحيث ينطبق عليها تمام الانطباق، فلا تخرج أى منها من تحت عباءته.

ولا تستثنى النظرية أيا من الموجودات فى العالم الاجتماعى إلا وتسعى إلى إحصائه وتغشيه تحت عباءة المثال المستعار، سواء أكانت موجودات فاعلة، وهم الأفراد بذواتهم ودوافعهم وأفعالهم واختياراتهم، أم كانت الموجودات هى البنى والمؤسسات والنظم المتحققة من تراكم أفعال الأفراد الفاعلين، وهذا الحرص من قبل النظرية على أن تتحدث عن كلا النوعين من الموجودات هو الذى يجعلها تعانى من الانقسام والتجزؤ، على حد قول (إيان كريب):

" فالمجتمعات والأفراد الفاعلين شكلان مختلفان من أشكال الوجود، يحتاجان إلى شكلين متباينين من أشكال الفهم والتفسير، غير أننا لكى نفهم الواقع الاجتماعى فلابد لنا من فهم كليهما : فالمجتمعات لا يمكن أن تستمر فى الوجود دون الفاعلين، والعكس بالعكس.. بحيث يبدو أن النظرية الشاملةTotalizing theory هى فكرة متضمنة فى صميم مشروع علم الاجتماع، ومع ذلك فهى فكرة غير قابلة للتحقيق، وعلى الرغم من ذلك فإن كثيرا من النظريات تدعى الشمول، وهذا ما يفسر لنا بدقة لماذا تحدث عملية الانقسام تلك،

أو لماذا كانت النظريات عرضة للانقسام ابتداء. لقد حاولت هذه النظريات فى الواقع أن تعمم نظرية تناسب شكلا واحدا من موضوعات العالم الاجتماعى، وتطبقها على جميع أشكال الموضوعات الاجتماعية، وهذه المحاولات أدت إلى إخفاقات واضحة فى التعامل، إما مع المجتمع أو الفاعل أو كليهما.. إن طبيعة العصر تعكس نفسها على النظرية الاجتماعية فتفاقم من نقاط الخلاف والانقسام فيها، وأعتقد أن تجزؤ خبرتنا فى حد ذاته قد أدى إلى شك عام حول إمكان الوصول إلى النظرية الشاملة. "(٢٥).

وقد تعددت ردات الفعل تجاه إخفاق النظرية عموما، والنظرية الاجتماعية بوجه خاص، فى وضع تصورات شاملة متكاملة حول الوجود، وبالتالى إخفاقها فى تقديم معالجات ناجعة لما يحفل به ذلك الوجود من مشكلات.. نقول تعددت ردات الفعل بداية من الثلث الأخير من القرن الماضى، فى ظل ظروف حضارية وأيديولوجية خاصة اعترت المجتمعات الأوروبية، ولكن تظل من أبرز ردات الفعل هذه كتاب " ضد المنهج Against Method " ١٩٧٥ لفيلسوف العلم (فيرابند)، و كتاب " بنية الثورات العلمية " لـ (توماس كون)، وكتابات مؤرخ الأفكار (ميشيل فوكو) :

فقد رفض (فيرابند) المنهج بمعناه اللاتاريخى العقيم، وخاصة فى مجال العلوم الطبيعية، وأكد "نسبويَّة Relativism" النظرية، وعدم جواز خضوعها للمقارنة اللاتاريخية مع النظريات الأخرى السابقة عليها أو اللاحقة، أو ما يعرف بمبدأ "اللامقايسة Incommensurability"، حيث تجوز، بل وتحبذ، الاستعانة بمداخل ومنهجيات متعددة لدراسة الظاهرة، لأن السؤال عن المنهج الواحد سؤال زائف، فالعلم لم يكن قطُّ أسير منهج أو نظرية واحدة، بل هو مشروع "فوضوى Anarchic Enterprise"، أى لا يعترف بأية سلطة، وكل المناهج يمكن أن تجدى

تبعا للشعار الذى رفعه: " كل شيء مقبول Any thing goes" (٢٦).

وكان (توماس كون) قد سبق (فيرابند) فى ردة فعله الرافضة للنـزعة اللاتاريخية فى العلم، وفى نقده لفكرة الارتكان إلى الملاحظات التجريبية والاستقراء كأساس للتعميم والوصول إلى القانون العلمى، وهو الذى أكد على أهمية النظرية كإطار موجه لعمليات التجريب والاستقراء، بمعنى أن يسبق التصور المبدئى أو الفرض عملية التجريب أو النـزول إلى الواقع، ويعمل على ربط الوقائع والمعطيات الإمبيريقية فى إطار متناسق يؤدى إلى تكوين القانون العلمى (٢٧)... بيد أنه لم ينظر إلى هذا الإطار التنظيرى نظرة تقديس، بل دعا إلى ضرورة الثورة عليه باستمرار، وإلى استبدال نموذج استرشادى جديد فى البحث (بيرادايم Paradigm) بالنماذج الاسترشادية الراهنة كلما كان ذلك ممكنا، مدللا على ذلك بأمثلة كثيرة من الثورات العلمية التى تعاقبت على الفكر الإنسانى، مؤكدا نسبوية ذلك النموذج الإرشادى، وهى التى تعلمها منه (فيرابند)، وضرورة نقده وتحليله فى إطاره التاريخى، بل على ضرورة نقد الجماعة العلمية التى تسانده أيضا، باعتباره مفهوما اجتماعيا وليس فقط باعتباره مجرد بديل للنظرية الشاملة (٢٨).

ثلاث رؤى بديلة، إذًا، تم طرحها ابتداء من الستينيات من القرن الماضى : **الأولى** تدعو إلى محاصرة الظاهرة بأكثر من نظرية وأكثر من منهجية، سعيا إلى استثمار ما لدى كل منها من أسلحة ناجعة، سواء فى سبيل التفسير والفهم، أو فى سبيل التنبؤ والتحكم، **والثانية** تدعو إلى استبدال النموذج الإرشادي Paradigm بالنظرية الشاملة، باعتباره خبرة متعلمة ثبتت فاعليتها لدى جماعة علمية من الباحثين، وربما وجدت جماعة أخرى فى خبرة غيرها فاعلية أكبر فى تحقيق أهداف العلم فى نفس الموضوع، سواء بشكل متزامن، أو بشكل متعاقب، دون أن تكون ثمة زاوية واحدة للنظر،وليس باعتباره تصورا كليا لها ولما يحيط بها من ظواهر وموجودات.

أما الرؤية البديلة **الثالثة**، فقد قدمها كتاب ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة،

وتتلخص فى رفض النظرية بالمعنى الذى يجعلها صانعة لعالمها، ومستقلة عن معرفة الإنسان، وفى إسقاط سمة الإحكام المنطقى عنها، و يمكن فى هذا الصدد تصنيف هؤلاء إلى اتجاهين : اتجاه سلبى متشدد SkepticPostmodernists يرفض النظرية بوصفها تصورا كليا، ويراها مقيدة، بل مدمرة للفكر، والآخر إيجابى Affirmative Postmodernists يرفض الوقوع فى أسر النظرية والاعتقاد بأنها بمثابة الحقيقة، ويرى ضرورة نقدها وتطويرها، وليس إلغائها.

وأيا كانت الطروحات بشأن إخفاق النظرية، أو تجزئها، أو خطورة الإسراف فى الاعتماد عليها لكونها تقيد الفكر وتقولبه، يبقى التسليم بأن الإنسان بطبيعته كائن نازع إلى التنظير، وبأن المبالغة فى رفض التنظير (الدعوة إلى اللاتنظير) هى دعوة غير واقعية، وغير قابلة للتطبيق؛ لأنها ببساطة دعوة إلى الامتناع عن التفكير، أو الامتناع عن التأمل المرئى Theoria بالتعبير اللاتينى (٢٩)، وهو ما يمثل، فى مجال التربية خصوصا، خطرا داهما على الممارسات، حيث ستأتى مفككة ومعزولة عن أطرها وسياقاتها.

٣ـ فى مواجهة تجزؤ النظرية.. الحاجة إلى النقد والوعى الأيديولوجي

وما نسعى إلى إظهاره فى العرض التالى، هو أن قدرة النظرية الاجتماعية، وتطبيقاتها التربوية بطبيعة الحال، على الوفاء بمهامها تجاه الظاهرة.. هى قدرة محدودة بحدود الأسئلة الأنطولوجية والإبستمولوجية التى تطرحها، وأن الإسراف فى الاعتماد على نظرية بعينها يهيئ غالبا للوقوع فى شرك تجزؤها، الأمر الذى يتعين معه توافر قدر وافر من الوعى المنهجى والأيديولوجى لدى استخدامها.

وكما سبق، فإن النظرية الاجتماعية فى سعيها إلى التفسير تعنى بالإجابة عن نوعين من الأسئلة، الأولى أسئلة أنطولوجية حول طبيعة المجتمعات وطبيعة الفاعلين، أما الثانية فهى أسئلة إبستمولوجية حول أسباب ونتائج الأفعال

والعلاقات بين الأفراد الفاعلين والبنى الفاعلة.

وعلى ذلك فقد تنازعت الدراسة الاجتماعية للظاهرة التربوية نزعتان رئيستان وفقًا لتصنيف (كريب): **أولاهما**: تنطلق مما يمكن تسميته بمجموعة نظريات الفعل، وتضم البنائية الوظيفية بشكل أساسى علاوة على التفاعلية الرمزية والظاهراتية والإثنوميثودولوجى.. وهى فى مجملها تفسر الظاهرة التربوية باعتبارها نتيجة من نتائج الفعل والتفاعل بين أفراد المجتمع، و"مؤسسة " من مؤسساته بتعبير الوظيفية، أو " محادثة " من محادثاته بتعبير النظريات التفاعلية التى تهتم باللغة باعتبارها صورة الحياة الاجتماعية، وقالبها الذى يحويها.

أما النزعة **الثانية**: فتنطلق من مجموعة نظريات البنية، وتضم الماركسية بشكل أساسى، علاوة على البنيوية، وما بعد الحداثة، والمدرسة النقدية.. وفيها تفسر الظاهرة التربوية باعتبارها : إما أداة فى يد بعض الفئات الاجتماعية أو يد الدولة لإعادة إنتاج الواقع الاجتماعى المشوه، أو وسيلة من وسائل تحرير الإنسان من القهر، وهى فى الحالتين تعبير عن البنية وانعكاس لخصائصها، أو جزء لا يتجزأ من خطابها

التربية فى نظريات الفعل : البنائية الوظيفية

فالبنائية الوظيفية، على رأس نظريات الفعل الاجتماعى، ترى أن التربية هى إحدى مؤسسات البناء الاجتماعى الناشئة عن تراكم فعل " التربية " من قبل أفراد المجتمع على مدى قرون من الزمن، على المستوى اليومى المباشر غير المخطط، وعلى المستوى الجمعى أيضا، حتى إذا جرى تنميط هذه الأفعال من خلال أنساق التنشئة الاجتماعية والتنظير المتخصص، وتم ترشيدها بواسطة الأنساق المعيارية المعتمدة، أضحت التربية بمفهومها المؤسسى الاجتماعى عنصرا رئيسا من عناصر بقاء المجتمع واستمراره.

وهكذا تسير العملية فى دورة متصلة : الأفراد والجماعات يربون أبناءهم لتحقيق غايات خاصة، ووفقا لمعايير ومعانٍ خاصة، وتنتظم تلك الأفعال بواسطة أنساق من القيم والمعايير الاجتماعية المستقرة، فتتحول الأفعال الفردية وما يقف وراءها من غايات (أفعال غائية طوعية) أو ما يسميه (بارسونز) بـ"وحدة الفعل الصغرى" إلى نطاق ممكن للفعل المتاح للجميع، بمعنى أنها تتحول إلى أفعال نمطية تحكمها مجموعة محددة من التوقعات من قبل المجتمع.

وفى مقابل إذعان الأفعال الفردية بعد ذلك لنمط الأفعال المتوقعة، أو ما يسمى بـ " أدوار المكانة status roles "، كنمط الأفعال المتوقعة من الوالدين مثلا، أو من المعلمين.. إلخ، يحظى أصحابها بالقبول الاجتماعى، وهو ما يتكرر ويتراكم ليصبح بمثابة النواة لبلورة المؤسسة التربوية، التى يوكلها المجتمع مهمة حفظ معاييره والعمل على بقائه واستمراره.

التربية، بهذا المعنى، آلية اجتماعية محافظة، تسعى إلى تعزيز أنماط معينة من الأفعال والعلاقات، وإن كانت هى أصلا نتيجة من نتائج أفعال الأفراد الفاعلين؛ أى أن البنية تنشأ عن الفعل، ثم لا تلبث أن تتحكم فيه وترشده.

النظريات التفاعلية

بيد أن تفسيرا مختلفا للظاهرة التربوية تسوقه نظريات أخرى للفعل، هى مجموعة النظريات التفاعلية، ونقصد بها التفاعلية الرمزية Symbolic Interactionism، والظاهراتية Phinomenology، والمنهجية العامية (منهجية النظام الاجتماعى) Ethnomethodology.

فالفعل الاجتماعى المنشئ للبنية لديها فعل لغوى أو رمزى فى بالأساس، بحيث تبدو الظاهرة التربوية فى الأخير، وكأنها " محادثة " تتم بين الأفراد الفاعلين بتعبير التفاعلية الرمزية، أو تبدو وكأنها " مؤامرة " يتواطأ أفراد المجتمع فيما بينهم كى

تظل معانيها ودلالاتها حكرا عليهم دون غيرهم.

فالأفراد يتصرفون حيال الأشياء والمواقف وفق ما تعنيه بالنسبة لهم، وهى المعانى الناشئة عن الرصيد السابق للتفاعلات الحادثة فيما بينهم، والتى تتجسد فى مجموعة من الرموز التى بدورها يجرى تأويلها عبر عملية تداولها، فيتم على أساس ذلك التأويل إقرار بعض العلاقات والمواقف والقيم وتكريسها، إن كانت المعانى مشتركة ومتفاهم عليها، أو التحفظ على البعض الآخر أو الاختلاف عليه.. هكذا تفسر التفاعلية الرمزية أفعال أفراد المجتمع، وهكذا تفسر عمليات تربوية محورية مثل عملية التطبيع الاجتماعى، ولكنها تغفل الأثر الذى يمكن أن تحدثه البنى الاجتماعية على تلك الرموز وما تحمله من دلالات.

وتمضى الظاهراتية فى تغافلها عن أثر البنية إلى أبعد من ذلك، إلى الحد الذى يبدو فيه الأمر وكأن ليس هناك من شىء اسمه المجتمع !! فالأفراد عبر عملية التنشئة الاجتماعية، وهى عملية معرفية بالأساس، يتعلمون كيف يقومون بتنميط الموجودات فى العالم الاجتماعى المحيط بهم إلى فئات تسمى بـ" سياقات المعنى " من خلال إدراكهم الحسى، وتحكم عملية التنميط هذه معايير ومعانٍ عامة تشبه نسق القيم المحورى الذى تحدث عنه (بارسونز)، وهى معان خاصة بالمجتمع ولا يعيها إلا أفراده فقط، بحيث يصعب، بل يصبح من قبيل الخطأ المنهجى، أن يبادر الباحث الاجتماعى إلى تأويل أفعالهم قبل أن يسألهم هم عن معانيها بالنسبة إليهم.

وتظل الظاهرة الاجتماعية، والتربية جزءٌ منها، بهذا الشكل محصورة فى نطاق ما يسمى عند (فتجنشتاين Wittgenstein) فيلسوف التحليلية بـ " ألعاب اللغة "، ويظل الفعل الاجتماعى شكلا من أشكال تفصيل قواعد اللغة فى مجتمع معين، بل يصبح المجتمع ذاته " محادثة رمزية مقصورة المعانى على أصحابها "، مما يحيل كافة أشكال الحياة إلى نسبية لا تنتهى، فلاشىء متعين اسمه المجتمع، وإنما المجتمع ما أصنعه أنا، وما تصنعه أنت، وما يصنعه هو، وما يصنعه كل منا بإدراكه، بينما نشترك

جميعنا فى المؤامرة التى تعطى انطباعا بأن هناك شيئًا اسمه المجتمع.

وهذا ما يجعل بعض الكتابات تصنف الظاهراتية كإحدى أهم تيارات ما بعد الحداثة، باعتبارها تزدرى تلك النظرة " العلمية " إلى الحياة الإنسانية وما تتضمنه من ميكانيكية وتضييق لزاوية النظر، ولكونها – النظرة العلمية – لا تهتم بالكيفية التى يصنع الناس بها حيواتهم ويجعلوها ذات مغزى، ويحفل خطابها الموضوعى "المزعوم " بالكثير من المفاهيم المصطنعة حول " النظام الاجتماعى "، و" البنية المعرفية "، و" الصراع الطبقى " وغيرها، إضافة إلى كون الظاهراتية تعتمد الخصوصية الثقافية واللسانية فى الخطاب (٣٠).

التربية فى نظريات البنية

وهكذا تبدأ نظريات الفعل من نقطة واحدة فى تفسيرها للظاهرة، هى وضع تصور أو نموذج نظرى يتضمن أفعال الأفراد ونواياهم والوسائل التى يختارون من بينها لتحقيق تلك النوايا، وهو فى الغالب تصور بلاغى يعتمد على الاستعارة والتشبيه، فالمجتمع كالكائن الحى فى نظر البنائية الوظيفية، والمجتمع محادثة كما عند التفاعلية الرمزية، أو مؤامرة كما عند الظاهراتية..

كما يتضمن النموذج النظرى أيضا وصفا للمحيط الحاضن لتلك الأفعال والموجه لها، وهو غالبا محيط من الأفكار والرموز الحاكمة أو المبررة للفعل، وبالتالى فهو ذو طبيعة معرفية، بل إن المعرفة الاجتماعية التى يتألف منها ذلك المحيط هى البانية للبنى الاجتماعية سواء أكانت مادية أم معنوية، ولكن ليس بالصورة المباشرة التى ترى فى أفعال الأفراد، وبالتالى فى تراكمها وتكرارها على شكل أنساق معيارية سببا مباشرا فى خلق المجتمع، بل تراها ذات وظيفة تحويلية، تؤثر على طبيعة البنية القائمة ولكن على مدى طويل.

وهذا على وجه التحديد موضع الاختلاف بين نظريات الفعل ونظريات البنية،

فالأخيرة تنطلق من مسلمة إبستمولوجية مغايرة مفادها أن المادة تسبق الفكرة فى وجودها، ومن ثم فهى تشكلها وتوجه مسارها وتطورها، وأن الفكر انعكاس للواقع الاجتماعى وتعبير عن الوعى به، كما فى الماركسية، وأنه ربما كانت لذلك الفكر بنيته المتماسكة التى تحدد للأفراد الكيفية التى يدركون بها ذلك الواقع.

البنيوية

والبنية هنا قد تكون " مادية " متجسدة فى أشكال النشاط الاقتصادى، أو التركيب العرقى، أو التراتب الطبقى.. وقد تكون " فكرية " تتألف من منظومة متماسكة من المعانى العامة، ولكنها فى جميع الأحوال ذات وجود مستقل عن أفعال الأفراد ورغباتهم وما تحمله من معان.

وهذا التمييز بين دراسة البنية بوصفها نظرية فى المعانى العامة، وبين دراستها بوصفها واقعا اجتماعيا محددا للمعرفة والفكر، هو ما ينبه إليه (كريب Craib) عند تناوله للبنيوية Structuralism ضمن نظريات المجموعة الثانية المعروفة بنظريات البنية : فهو يفرق بين البنيوية بوصفها نظرية فى المعانى العامة، تعنى بتحليل اللغة وبنيتها المنطقية وما يسمى بـ " اللغة الشارحة Meta- Language".. وبين البنيوية باعتبارها نظرية فى البنية الاجتماعية وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على أفكار الناس وأفعالهم.

ففى الماركسية البنيوية عند (ألتوسير Althusser) نجد ثلاثة مستويات من البنى الاجتماعية هى: المستوى الاقتصادى، وهو ذو تأثير جوهرى فى بقية المستويات، والمستوى السياسى، والمستوى الأيديولوجى (أى مستوى إدراك الناس لأنفسهم وللعالم)، و العلاقة بين هذه البنى علاقة تأثير وتأثر، وليست أحادية الاتجاه تماما كما فى الماركسية التقليدية، وهى فى تأثيرها على الأفراد من خلال أجهزة الدولة الأيديولوجية، والتربية واحدة من أهم تلك الأجهزة على الإطلاق، تعمل على موت " الذات "، وجعلها مثل الدمية فى مسرح العرائس، ولكن دون أن تدرى

ذلك أو تعيه تلك الذات، فالأفراد يسلكون فى الحقيقة وفقا لـ " أوضاع " اجتماعية وليس " أدوار" اجتماعية كما تقول البنائية الوظيفية، وهذه الأوضاع الاجتماعية يتم إعادة إنتاجها باستمرار من خلال " الممارسات " الفردية التى تبدو لأصحابها وكأنها طوعية واختيارية ومستقلة عن البنى والأوضاع، بينما هى فى الحقيقة غير ذلك.

ومع تزايد الانتقادات الموجهة إلى الماركسية، وإلى بقية التصورات النظرية الشاملة التى تزهو بعقلانيتها، ظلت فكرة البنية الاجتماعية المحددة للمعرفة وللعلاقات وللأفعال هى الفكرة السائدة خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضى، فى إطار ما سمى بـ " ما بعد البنيوية " فيما يختص بنقد البنيوية، و " ما بعد الحداثة " فيما يختص بنقد الرأسمالية الصناعية الحديثة.

ما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة

فقد كانت الانتقادات التى وجهت إلى البنيوية وما تفترض وجوده من اتساق منطقى عقلانى للبنى الكامنة فى العالم الذى نعيشه، مجالا للدعوة إلى إسقاط سمة العقلانية عن هذا العالم، والدعوة إلى استبدال الأجزاء الصغيرة من العقلانية بالعقلانية الكلية، أو ما عرف بعد ذلك بالنـزعة إلى التفكيك، خاصة لدى المجتمع الفكرى الفرنسى، بحيث يمكن اعتبار البنيوية بمثابة النذير precursor أو البشير لظهور ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، أو باعتبار الأخيرة بمثابة التطور الطبيعى للأولى (٣١).

إذ علاوة على سقوط فكرة التشكل الاجتماعى بفعل التأثير الحتمى للمستوى الاقتصادى، وظهور الكثير من الأمثلة لصراعات وتحولات اجتماعية نشأت على أسس أخرى غير اقتصادية كالصراعات العرقية والثقافية.. كان للنقد الموجه إلى فكرة " موت الذات " بفعل خيوط التحريك الأيديولوجية وعمليات تزييف الوعى، والتى طرحها (ألتوسير) وغيره من البنيويين.. كان ذلك النقد بمثابة العيب

المميت فى البنيوية الذى أدى إلى انهيارها :

ذلك أن موت الذات بتأثير عوامل التضليل والإيهام بمشروعية وعقلانية ما تعيش فى ظله من أوضاع اجتماعية، وكأنها من نتاج الأفعال الطوعية والنتائج الموضوعية لتلك الأفعال.. ذلك الموت يتناقض مع الدعوة إلى تغيير البنى الاجتماعية وتحرير الذات من تأثيراتها اللاعقلانية؛ لأن الإنسان وفقا لهذا التصور يصبح وكأنه " صفحة بيضاء " ليس لديها أية تصورات مسبقة يدركها ويلتزم بها، وهو ما يخالف فكرة إدراك الذات (إدراكا مضللا) بأنها تسلك بصورة حرة؛ إذ كيف لها أن تدرك وهى قد ماتت بالفعل ؟ ولماذا لا تعمل على تحرير نفسها من تأثير الأيديولوجيا إن كانت قادرة على الإدراك ؟

يضاف إلى هذين النقدين، ما وجه إلى البنيوية من انتقادات تنال من منطقيتها وتماسكها الداخلى، خاصة فى جانبها المتعلق باستقلال البنى النظرية عن معرفة الإنسان، وتأثيرها على طريقته فى إدراك العالم؛ إذ لو كان العالم من صنع أفكارنا، وكانت النظرية هى التى تخلق موضوعاتها، فإنه (أى العالم) يصبح ذا بنية منطقية مماثلة للبنية المنطقية المتسقة التى تمتلكها النظرية.. وهو مالا تؤيده حقائق الواقع فى كثير من الحالات، الأمر الذى يقطع بكون البنيوية تستند إلى مسلمات ميتافيزيقية.

وهكذا أصبح الاتجاه السائد فى نظريات علم الاجتماع، هو الاتجاه نحو إسقاط سمة العقلانية عن تلك النظريات التى سادت منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى السبعينيات من القرن العشرين، سواء تلك التى تزعم أن أفعال البشر مُرشَّدة بفعل أنساق اجتماعية عقلانية، كالبنائية الوظيفية، أو تلك التى تزعم أن ثمة بنى فكرية تتسم بالمنطقية تحكم إدراك البشر لذلك العالم كالبنيوية فى صورتها اللغوية، أو تلك التى تبشر بالحتمية التاريخية والاقتصادية وغيرها من حتميات الصيرورة والتفسيرات السببية.

ولكن حتى فى ظل ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، تظل البنية هى الشغل الشاغل للنظريات الاجتماعية، ليس من باب البحث عن عمقها العقلانى الحاكم لأفعال البشر وعلاقاتهم، ولكن من باب البحث فيما تتسم به من فوضى ولاعقلانية وميوعة.

فالفوضى هى القاعدة، وما تفرزه الذوات (سواء أكانت أفرادا أم جماعات) من خطابات يضفى على تلك الفوضى بعض الانتظام من خلال ما تحدثه فى العالم الاجتماعى من تمايز فيما بينها؛ إذ يعتمد معنى كل خطاب منها على علاقته بغيره من الخطابات، وعلى البنى التى يعكسها كل منها؛ إذ أن ما توجهه جماعة أو فئة اجتماعية إلى بقية المجتمع من خطاب يمثل موقعها من البنية، ويترجم ما تحوزه من قوة منسوبة إلى ما تحوزه بقية الجماعات من قوة.

ومفهوم " القوة" لدى منظرى ما بعد الحداثة يعنى " المعرفة "، وهو ارتباط قديم يعود إلى كتابات الفيلسوف الألمانى (نيتشه) نهايات القرن التاسع عشر، ولكنه أكثر شيوعا واستعمالا فى كتابات (ميشيل فوكو Foucault) الذى جعل المعرفة هى القوة، وليست المعرفة سببا للقوة.

وهكذا تنكر ما بعد الحداثة إمكانية البحث الاجتماعى فى عمق الظواهر؛ لأنها ترى العالم الاجتماعى سطحيا، بحيث لا يمكن الطموح إلى دراسة شىء أعمق مما يموج به ذلك السطح من آلاف الخطابات Discourses الصادرة عن الذوات الاجتماعية، والتى تتضمن كافة الأقوال والأفعال المعبرة عنها، والتى ترتبط مع بعضها البعض، مميزة كل خطاب منها عن بقية الخطابات، ومضفية معانى مستقرة لكل منها.

والمعنى عند كتاب ما بعد الحداثة يظل فوضويا وغير مستقر ما لم يتبلور فى خطاب، أى ما لم يعبر عن علاقة محددة من علاقات القوة بتعبير (فوكو)، وهو ما يعنى ممارسة القوة من قبل إحدى الذوات على غيرها من خلال ما تمتلكه من

معرفة، وهى التى تجعلها قادرة على تحقيق مصالحها وتحديد نطاق قوتها وتأثيرها بالنسبة للآخرين.

فالعالم ممتلئ بآلاف مؤلفة من علاقات القوة والمقاومة (علاقات الصراع)، حيث يسعى كل من يمتلك معرفة إلى وضع القواعد التى تحقق مصالحه، والتى يتقرر بواسطتها : من الذى يستطيع أن يقول قولا معينا، وفى أى إطار يقوله، كما يحدد بواسطتها من الذى يستبعد من الدائرة ويحرم من أن يقول شيئا بسبب افتقاره إلى المعرفة.. وهى الفكرة التى طورها (بيير بورديو Bourdieu) تحت مفهوم العنف الرمزى Symbolic Violence .

وهكذا يمكن للفئات الاجتماعية الأقوى؛ أى الأكثر حيازة للمعرفة، أن تفرض رموزها ومعاييرها (خطابها) على بقية الفئات، وأن ترسى القواعد التربوية "العلمية" الحاكمة لعمليات الانتخاب والتصعيد الاجتماعى، من خلال آليات التشعيب وأساليب التقويم.. وغيرها.

فالمعايير التعليمية، وقواعد المفاضلة بين المتعلمين للالتحاق ببرامج ونوعيات معينة، ومفاهيم التقويم وأدواته ومقاييسه المقننة، وأسس بناء المناهج الدراسية، واختيار موضوعاتها ومحتواها.. كلها بمثابة رموز ثقافية يتبناها أعضاء المجتمع المهنى والأكاديمى التربوى، ويوجهها إلى بقية أفراد المجتمع وجماعاته فى صورة خطاب " علمى "، مدعوما بمساندة سياسية وإعلامية من أجل اعتماده، بينما هو فى حقيقته تعبير عن معايير وقيم شريحة أو فئة اجتماعية ذات رصيد معرفى كبير.

وتتخذ فكرة " اللانظام "، وكون الواقع الاجتماعى ذى طابع غير مستقر تضطرب فيه الخطابات، صورا متعددة فى تفسيرات كتاب ما بعد الحداثة لكثير من الظواهر المعاصرة على المستويات المعرفية والسياسية والاقتصادية، مثل "ثورة المعلومات " و"حوسبة المعرفة "، و"عولمة التجارة والاقتصاد" و"الخصخصة "..

وغيرها من مظاهر انفلات الرأسمالية العالمية من عقالها، علاوة على الظواهر التربوية المعاصرة والمصاحبة لما اعترى العالم من تحولات وأزمات.

النقدية

وفى مقابل موت الذات، أو اغترابها، أو استسلامها لعمليات تزييف الوعى، إلى ما هنالك مما قدمته الماركسية البنيوية من افتراضات ميتافيزيقية، وفى مقابل ما قدمته ما بعد الحداثة من افتراضات حول سيادة الفوضى، وحول عدم إمكانية الذهاب بالتفسير على أسس عقلانية إلى أعمق من سطح الظواهر، تأتى النقدية لكى تحاول معالجة الاختزال الذى وقعت فيه نظريات الفعل ونظريات البنية على حد سواء، بأن تطرح فكرة وسطية مفادها أن العلاقة بين الفعل والبنية علاقة جدلية، وأنهما متناقضان، ولكنهما فى الوقت ذاته متلازمان تلازما غير قابل للانفصام.

وتقدم النقدية لنا الوسيلة التى يمكن أن تحرر الذات من موتها أو من اغترابها ووعيها المزيف، ألا وهى : " النقد "، نقد الواقع فى ضوء ما ينبغى أن يكون عليه، وليس التغافل عنه، أو القفز عليه والاستغراق فى وضع تصورات لما ينبغى أن يكون، أو بتعبير أدق : الاهتمام بنقد العالم أكثر من الاهتمام بوضع تصور عن ماهيته قد لا يكون مفيدا فى عملية السعى إلى تغييره، والاهتمام بالتفسير بدلا من الاستغراق فى الوصف.

فالنقدية تهتم بالأحكام القيمية والدوافع الأخلاقية باعتبارها معايير لنقد آليات إنتاج وتوزيع المعرفة فى المجتمع، وبالتالى فهى تولى التربية اهتماما خاصا، لكونها إحدى أهم تلك الآليات.

وتتعدد رؤى كتاب المدرسة النقدية حول عملية تحرير الإنسان Emancipation من سطوة عمليات الهيمنة Guardianship التى تمارسها الأنساق الاجتماعية والجماعات صاحبة المصلحة، وهى العمليات التى من شأنها دمج ثقافة الناس مع

ثقافة النظام، وبناء أنماط من الشخصيات ليست فقط متقبلة للهيمنة، بل باحثة عنها أيضا !

وفى هذا الإطار يطرح كتاب النقدية مجموعة من المفاهيم الحاكمة والمساعدة على التأويل Interpretation، ويأتى فى مقدمتها مفهوم التشيوء Reification حيث يجرى عمدا تحويل الصفات والأفعال الإنسانية، وكذا الأوضاع الاجتماعية الناجمة عن تلك الصفات والأفعال إلى أشياء مسلم بها، وغير قابلة للنقاش أو التغيير، وكأنها من طبائع الأمور، أو كأنها مستقلة عن الفعل الإنسانى، شأنها شأن القوانين الطبيعية.

والتشيوء يتجاهل فكرة تطور الحياة والعلاقات الاجتماعية وتراكمها بشكل تاريخى، كما يتجاهل النظرة الكلية إلى المجتمع، ويعمد إلى التعامل مع الجزئيات بصورة منفصلة، مقطوعة الصلة بعضها عن بعض، مما يؤدى إلى اختفاء الأسباب والملابسات التى أدت إليها، والمصالح المتحققة من ورائها.

فيصير الذكاء مثلا مفهوما إثنيًّا يتمتع به بعض بنى البشر من أجناس وأعراق معينة بشكل متميز، بينما يقل لدى البعض الآخر من أبناء الأعراق الأخرى، أو تصبح التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية مبررة على خلفيات تعليمية كالفروق الفردية فى التحصيل والإنجاز التعليمى، أو تصبح مقولة مثل " العقل السليم فى الجسم السليم " حكما نهائيا بعدم أهلية ذوى الإعاقة للانخراط فى البرامج التعليمية المعتادة.. وغيرها من الحتميات اللاعقلانية.

كما تطرح النقدية مفهوم العقل الأداتى Instrumental reason الذى تكرسه جماعات المصالح من خلال عمليات التشيؤ المشار إليها، فتضحى العلاقات الاجتماعية وكأنها بين أشياء، وتضحى نظرة الإنسان إلى نفسه، وإلى الآخرين، وإلى المعرفة، وإلى الأشياء نظرة برجماتية صرفة، فالآخرون يعنون الكثير إذا كانت

العلاقة معهم تؤدى إلى تحقيق مصلحة ما، والمعرفة قد لا تعنى شيئا إن لم تكن ذات نفع أو وظيفة تطبيقية.

وهكذا تنفصل الوقائع عن القيم التى يجب أن تحركها، فالأشياء والمعارف والأشخاص، يتم التعامل معهم من خلال منطق "الكيفية "، و"الكفاءة "، و"الإنتاجية ".. وليس من خلال المنطق الخلقى " ما يجب أن يكون ومالا يجب أن يكون "، ويتم التعامل مع الظواهر الاجتماعية مثلما يتم التعامل مع الظواهر الطبيعية من خلال منهجية وضعية صرفة.

وما المحاسبية Accountability، وفاعلية المدرسة School Effectiveness، والتعلم المرتكز إلى المخرجات Outcomes based learning.. والتقييم المستند إلى الأداء Performance based assessment.. وغيرها مما يحفل به الخطاب المعاصر فى التربية، إلا نماذج تطبيقية حية لذلك العقل الأداتى.

وتستوى الرأسمالية والماركسية والبنيوية فى خطيئة العقل الأداتى من وجهة نظر النقدية، فكلها نظريات تكرس الفكرة ذاتها، وإن اختلفت الأهداف والطرائق؛ إذ تمثل ثورة البوليتاريا والاشتراكية ميكانيزمات أداتية فى إطار نموذج حتمى للتغير، أكثر مما تمثلان وسيلتين للتحرر (٣٢).

وعلى ذلك فإن العقل الأداتى يجعل من المعرفة وسيلة للهيمنة؛ إذ من خلاله يتبنى الناس معايير واختيارات ليست فى الحقيقة مناسبة لهم أو محققة لمصالحهم، دون أن يعوا ذلك أو يدركوه، الأمر الذى يدمر السمتين الأساسيتين للحياة الإنسانية وهما : القدرة على تغيير البيئة المحيطة، والقدرة على الاختيار العقلانى.

بيد أن الأثر الأكثر أهمية من وجهة نظرنا فى هذا الكتاب، هو ما يترتب على تكريس العقل الأداتى من " تفكيك " و" تجزؤ Fragmentation " للظواهر والبنى المادية والفكرية، واختفاء لفكرة " الكلية Totality "، وهو الخطأ الذى يرى نقاد

النقدية أنها وقعت فيه هى أيضا؛ إذ لم تقدم تصورا كليا حول المجتمع والأفراد، أكثر مما قدمت قطعا صغيرة من النقد لأجزاء صغيرة من العالم الاجتماعى وعملياته، وهو ما يوجد ارتباطا ما بين النقدية، خاصة فى أعمال (أدرنو Adorno)، وبين كتابات ما بعد الحداثة .

استخلاصات :

وهكذا، فإن أزمة التنظير التى نفترض أنها تقف من وراء ظاهرة التفكيك فى التربية، هى النتيجة الطبيعية لقصور الوعى بتجزؤ النظريات وعدم قدرتها على الإجابة عن كلا النوعين من الأسئلة، وبالتالى قصور الوعى بما تتضمنه النظرية من توجهات أيديولوجية مضمرة، متمثلة فى انحيازاتها، و انتقائيتها فى طرح الأسئلة وفى الإجابة عنها، الأمر الذى ترتب عليه التعامل مع النظريات بأشكال متعددة من "الضلال " المنهجى/ الأيديولوجى، إن جاز لنا التعبير، تراوحت ما بين تقديسها والافتتان بها باعتبارها تصنع الظواهر وتحكم صيرورتها، والاستهانة بها وتجريدها من سياقها التاريخى باعتبارها مجرد " أدوات" !!

وإذا كانت كل نظرية اجتماعية، فى العرض السابق، قد تناولت جانبا من الظاهرة التربوية بشىء من التركيز والاهتمام أكثر من غيره، فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أن يكون الموقف من استخدام النظرية موقفا فوضويا (بالمعنى الفلسفى للفوضى وليس بالمعنى المباشر)، كأن يشرع الباحثون فى تسليط حزمة من النظريات على الزوايا المتعددة الظاهرة، دون اعتبار لما قد يكون بينها من اختلاف أو تناقض، فهذا فى ظننا أول الطريق إلى التفكيك وفوضى التنظير، لما ينطوى عليه الموقف من برجماتية ساذجة.

والأولى، أن يسعى هؤلاء الباحثون إلى نقد ما بين أيديهم من نظريات، وإلى تنمية وعيهم بما تنطلق منه كل منها من منطلقات، وأن يتحروا رصد أبعادها

الأيديولوجية، وتكوين رؤى أكثر بانورامية واتساعا حولها، حتى إذا اكتملت لديهم، أصبحوا مضطلعين تجاهها بمسئولية مزدوجة : مسئولية استخدامها فيما وضعت من أجله، وفيما يناسب طبيعتها وحدودها، ومسئولية الاستمرار فى نقدها وتطويرها.

أما عن عمليات تفكيك البنية، سواء على مستوى النظم والتنظيمات التعليمية، أو على مستوى النظريات التى تستند إليها، وإحلال وحدات جزئية محلها، فهى عمليات أيديولوجية فى الأساس، وإن كان ظاهرها مناوئا للأيديولوجيا : فالادعاء، من قبل المنظرين الغربيين مثلا، بأن إدارة نظم التعليم بشكل مركزى إنما يعكس نزعة شمولية غير ديمقراطية، علاوة على كونه يقلل من قدرة تلك النظم على الاستجابة لمقتضيات التغيير بالسرعة والكفاءة الكافيتين، هذا الادعاء ربما ينطوى على مغالطة أيديولوجية، كما ينطوى على محاولة للتنصل من تهمة ضعف الكفاءة والفاعلية وتدنى أداء تلك النظم على محك المنافسة الدولية، خاصة أمام نظم تعليمية أسيوية يدار أغلبها إدارة مركزية !!

والادعاء بأن الرؤى الكلية، والنظريات، والنماذج النظرية الحاكمة لعمليات تصميم المناهج الدراسية، ونظم إعداد المعلمين، ونظم التقويم.. وغيرها من التطبيقات التعليمية، إنما هى تصورات شمولية مغرضة تستهدف "تسييس " التعليم و"أدلجته"، مما كان سائدا فى عصر الأيديولوجيات الكبرى وانكفاء المجتمعات على ذاتها، ولم يعد مناسبا لعصر الكوكبية والسماوات المفتوحة واندماج الثقافات.. والادعاء بأن ما طرحته تلك الرؤى الكلية من مفاهيم تربوية، إنما كان مناسبا للتعامل مع ثقافات أحادية، وخصوصيات مجتمعية، ولم يعد مفيدا فى معرض المنافسة العالمية على الجودة والامتياز.. هذا الادعاء يخفى وراءه رغبة فى تقويض ما هو غير " أنجلوأمريكى "، وإحلال مفاهيم ومعايير انتقائية توليفية

مفككة بدلا منه، وهو ما سوف تحاول الدراسات التالية فى هذا الكتاب أن ترصده وتدلل عليه.

مراجع الفصل الأول

1. Mauther, M., "Human Values and Technical Advances", The Futurist. July-August,1992, p. 41.
2. Pacey, A., The Culture of Technology , MIT press, Cambridge, 1991, p. 6.

٣. توماس كون : بنية الثورات العلمية، ترجمة : شوقى جلال، عالم المعرفة (١٦٨)، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢، ص ٢٠٥ .

4. Inglehart, R., Culture Shift in Advanced Industrial Society, Princeton University Press, New Jersey, 1990.

٥. خلدون النقيب (محرر) : ثورة التسعينيات، العرب وحسابات نهاية القرن، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، (د. ت)، ص ٣٤٢.

6. Shwarzmantal, J., The Age of Ideology, Macmillan Press, LTD, London, 1998, p. 3.
7. Bertens, H., The Idea of Postmodernism : a History, Routledge, London and New York,1995,p. 3.
8. Inglehart, R., " Culture Shift.." , Op, cit, p. 67.
9. Chornish, E., "The Cyber Future, 92 ways our live Will Change by The Year 2025", The Futurist, January-Februry, 1996.
10. Mauther, M., " Human Values..", Op.cit, p.41
11. Lyotard, J., The Postmodern Condition :a Report on Knowledge, University of Minneosota Press, Mineapolis, 1984, p. 5

12. Castells, M., End of Millennium , Blackwell Publishers, Oxford, 1998,p. 67

١٣. إيان كريب: النظرية الاجتماعية، من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، مراجعة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة (٢٤٤)، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل ١٩٩٩، صص ٣٧-٣٩.

14. Jameson, F., The Culture Turn : Selected Writings on the Postmodern 1983-1998, Verso, London and New York, 1998, p. 136.

15. Helmling, S., Jameson F., " Postmodernism : Version 2", in: Postmodern Culture, Johns Hopkins University Press, feb. 1999.

16. Brosio, A. Richard, " Capitalism's Emerging World Order : The Continuing Need for Theory and Brave Action by Citizen-Educators", Educational Theory, Fall,1993, pp. 2.

17. Ibid, pp.3-5

18. Ibid, p.7

١٩. إيان كريب، مرجع سابق، صص ٣٧-٣٩ .

٢٠. نفس المصدر، صص ٣٣-٣٥.

21. Gary Thomas, " What is the use of theory ?" , Harvard Educational Review Vol. 67, No. 1, sprig, 1997,p.2

22. Ipid, P. 7

نقلا عن :

- Chambers ,J.H., Empiricist Research on Teaching : A Philosophical and Practical Critique of its scientific Pretensions. Kluwer, Dordrech, Netherlands:, 1992

23. Ipid, P. 8

24. Feyerabend, P. , Against Method , 3red ed., Verso/ New Left Books, London, 1993,P. 14

٢٥. إيان كريب، " النظرية الاجتماعية.."، مرجع سابق، صص ٥١-٥٤.

٢٦. يمنى طريف الخولى : "فلسفة العلم فى القرن العشرين، الأصول- الحصاد- الآفاق المستقبلية"، سلسلة عالم المعرفة (٢٦٤)، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر ٢٠٠٠، صص ٤٣٦-٤٤١ .

٢٧. توماس كون : " بنية الثورات العلمية "، ترجمة شوقى جلال، سلسلة عالم المعرفة (١٦٨)، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر ١٩٩٢، صص ٢٩-٣٩.

٢٨. نفس المصدر، صص ٢٢٥-٢٤١.

29. Rajagopalan, K., " On the Trappings of the Thesis of Anti-Theory, Or, Why the Idea of Theory May not, After all, Be all that bad: A Response to Gary Thomas", Harvard Educational Review, Vol. 78, No. 3, Fall 1998.

30. Lemke, J., "Semiotics and Deconstruction of Conceptual Learning ", John Hopkins University Press, JSALT papers, 1997,p.3

31. Ibid, p.1

٣٢. إيان كريب، مرجع سابق .

obeikandi.com